

الطباعات لوكر عن مناطق الخليج العربي

نقلم:

الدكتور سامي سعيد الأحمد

يعتبر وصف ا. لوكر (A. Locher) للمناطق التي مر بها من أقطار الخليج العربي مهمة رغم قصرها حيث جاءت في وقت قلت فيه الكتابات عن المنطقة وبزمن له أهميته (النصف الثاني من القرن التاسع عشر) وترك انطباعات قيمة للمهتمين بأحوال الخليج العربي. وتوضح الكتابات دقة لوكر واهتمامه بالتفاصيل وحب الاستطلاع لديه وسيتركز المقال على ما دونّه من انطباعات عن بلدان التي مر بها من الخليج والتي ضمنها كتابه الموسوم (مع



الذهبية والفضة) الطوبى باللغة الإنجليزية سنة ١٨٩٠^(١).
ولم ينشر لويس سنة رحلته وأعتقد أنها سبقت سنة ١٨٧٠
بمئيل بن أحد وقاله وكان إيطالي الجنسية قد أرسل لشراء خيول
أصيلة من العراق والجزيرة الفراتية (الواقعة بين ذراعي دجلة
والفرات ومنايع دجلة والفرات وجبال طوروس في شرق تركيا)
للإمبراطور نابوليون الثالث (١٨٤٨ - ١٨٧٠) والذي أطاحت بعرشه
الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ بين فرنسا وألمانيا. وقد زود رفيق

سفر لوكر هذا برسائل توصية وتعريف لأشخاص مهمين لمساعدته في مهمته دون أن يذكر هوية هؤلاء الذين زودوه بالرسائل ولا الرجال الذين بعثوه إليهم .

والتصدير بين أقطار الخليج العربي والهند آنذاك . والباخرة غاصة بالحمولات من شتى أنواع البضائع . وذكر لوكر أنه خلال سفرته هذه رأى أعداداً كبيرة من البواخر والسفن تمخر عباب بحر العرب (القسم الشمالي من المحيط الهندي) غادية وآيبة من وإلى أقطار الخليج العربي من الهند محملة بأصناف البضائع ، الأمر الذي يؤكد على قوة العلاقات التجارية وأهمية منطقة الخليج العربي في التجارة الدولية . والسفن العربية العاملة في هذه التجارة ، برأى لوكر ، ثقيلة مصنوعة من الخشب تتراوح حمولاتها من ٥٠ - ٢٠٠ طن تنقل عادة التمور ، القهوة ، الحنطة والصوف وما إلى ذلك . وغالبية ملاحيها من الصومال وزنجبار يعملون وهم نصف عراة (يقصد يلبسون الأزار الذي يشد من وسط الجسم ويصل إلى القدمين) .

وعندما صارت الباخرة على بعد مائة ميل من ساحل الخليج العربي (بتقدير لوكر) امتلأ ماء الخليج بالسماك

لم يذكر لوكر وهو أمريكي الجنسية في كتابه أي شيء عن خلفيته وعمله بل بدأ القول بركوبه الباخرة من بومباي ، الميناء الهندي الشهير على الساحل الشرقي بعد أن كان في رحلة صيد بغابات خاندیش وناجبور بالهند بصحبة ضابطين بريطانيين من الفرقة الهندية . والباخرة التي استقلها لوكر مخصصة لنقل البريد وأقلعت من بومباي في الثالث من مارس (دون أن يذكر السنة) وهو اليوم الذي كان فيه أصدقاؤه يعدون العدة لزيارة كهوف جزيرة إيفانث القريبة من بومباي والشهيرة باحتوائها على منحوتات رائعة وضخمة للآلهة البرهمية .

لم تكن الباخرة بالكبيرة بل متوسطة الحمولة (٨٠٠ طن) . وكانت عندما استقلها لوكر وزملاؤه مزدحمة بركاب من شتى الجنسيات ، إيران وأفغان والأغلبية العظمى منهم كانوا عرباً من أقطار الخليج العربي لهم علاقات تجارية مع الهند الأمر الذي يدل على متانة عمليات الاستيراد

وكأننا (حسب وصفه) (نسير وسط سمك) وقال بأنه لم ير في حياته منطقة بها مثل هذا العدد الوفير والهائل من السمك ومعنى هذا أنه يعتبرها أغزر سمكاً حتى من مصائد شمال الأطلسي في لبرادور ونيوفاوندلاند الشهيرة على ساحل المحيط الأطلسي لكندا والولايات المتحدة والتي تعتبر أكثر مناطق العالم ثراءً بالسمك والتي لا بد أن لوكر كان يعرف عنها جيداً^(٧).

صارت الباخرة عند شروق شمس الثاني من مارس على بعد قليل من ألحد (ألحاد) ويسميه لوكر رأس الصخور، أي أن سير الباخرة بين رأس الحد وبومباي قد استغرق خمسة أيام وهي مدة طويلة مقارنة بما تقطعه البواخر لنفس المسافة الآن، ويصف لوكر الأراضي التي مرّ بها على طول ساحل الخليج بهذه المنطقة بأنها ليست بالجميلة ولا المغربية بل عقيمة ومجدبة وخلفها سلسلة من التلال الوعرة الجرداء الصفراء المائلة للحمرة. وليس هناك أثر لحياة أو خضرة ويستنتج بأنها لا بد أن تكون غير مأهولة. ولم يحدد لوكر المنطقة أو يسميها حتى يمكن الحكم على وضعها الآن. وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات وصلت الباخرة

إلى رأس حيرات الذي يصفه لوكر بالمرتفع الهائل من الصخر واقفاً بكل شموخ في البحر مشكلاً ما يشبه حافة الطريق الجنوبي للداخل إلى ميناء مسقط في عمان. وبعد المرور بالرأس وصلت الباخرة إلى ميناء مسقط الواقع بكل كبرياء بين صخور ضخمة جداً تغطي جانبي الميناء العميق والضيق مع سور طبيعي هائل ارتفاعه ٢٥٠ قدماً. والمنظر جميل ويظهر في البداية صف من البيوت المشيدة بالحجر الضخم على طول الساحل عند نهاية الميناء الصخري الجنوبية. وأكثر هذه عظمة وبهاءً كان قصر السلطان الذي يتألف من ثلاث إلى أربع طوابق وهو مخصص لأسرته. وعلى يمين قصر السلطان بناية واسعة ذات طابقين وحديقة غناء هي دار المقيم السياسي البريطاني، وهو الأوروبي الوحيد، برأي لوكر، الذي يعيش في مسقط.

كما لاحظ وجود قلعة صغيرة جداً مشيدة على كل صخرة أو مرتفع يطل على ميناء مسقط الغاية منها الدفاع عن المدينة. ويعلق لوكر أن المواطنين العمانيين لم يتوانوا في بذل كل جهد في التعاون مع الطبيعة التي حبت مسقط

القادمة . وساور لوكر وزملاءه الخوف من ركوب القوارب الصغيرة لاعتقادهم بأنها غير آمنة ولكنهم ركبوها وكانوا خلال فترة ركوبهم فيها حذرين جداً في الجلوس بصورة ثابتة خوفاً من السقوط بمياه البحر المليئة بالأنواع المفترسة الخطرة . وقد أدهشت لوكر وجماعته لدى وصولهم الساحل رائحة رؤوس السمك المختلفة الأحجام المتناثرة على طول الشاطئ وتفسخ الكثير منها . كما لاحظوا أن سكان مسقط يتعجبون من سير لوكر وجماعته دون سلاح حيث أن كل مواطن يحمل نوعاً من السلاح .

ويبدو تعجب السكان، باستنتاج لوكر، أن الأوروبيين الذين يفدون إلى مسقط كانوا لا يختلطون مع أهالي البلد . وأن نصف البيوت المشيدة تشكل القسم الرئيسي من مدينة مسقط . والبيوت عادة واسعة عالية مشيدة من الصخر على الطراز العربي الذي يمتاز، بتحديد لوكر، بالسقوف المستوية وقلة النوافذ . وأكبر بيت كان دار السلطان الذي لم يكن وقت وصول لوكر موجوداً في المدينة بل كان في مهمة رسمية عند الحدود الشمالية الغربية من دولته . ويظهر أن لوكر كان حريصاً على مشاهدة

بالحماية من أجل خلق منعة وحماية أكثر للحصون والقلاع التي تحمي ليس فقط الميناء بل المدينة أيضاً . ويعتقد لوكر أن هذه التحصينات ليست بالمكيئة، وعلى حد قوله (أن إطلاقه مدفع واحدة تكفي لهدم البناية بأكملها) . لذا اقتنع لوكر بأنها بنيت لزرع الخوف في قلوب من تراودهم أنفسهم الهجوم فيترددون عن مهاجمة أي مكان مهم .

أطلقت مدافع ميناء مسقط ست قذائف تحية لباخرة البريد هذه كان صوتها مدوياً (كالرعد في المرتفعات الوعرة) . وتوقفت الباخرة في مياه البحر العميقة وأحيطت بالكثير من القوارب الصغيرة والتي يبلغ طول الواحد منها حوالي ٢٠ قدماً ويعرض قدمين بنهاية مدببة وقد حفرت القوارب من سيقان الأشجار . وبكل قارب ملاحان اثنان إما عرب أو (عادة من زنجبار أو الصومال) جاءوا لبيع بضائعهم لركاب الباخرة والتي تتألف غالباً من الفواكه أو السمك أو أنهم قدموا من أجل حمل ركاب الباخرة بقواربهم إلى الساحل . ويظهر قارب كبير قد أتى يحمل بريد البلد (عمان) لتسليمه لباخرة البريد

وتفحص كل شيء ، فقد ذكر أن مدافع جيش السلطان قديمة . وعندما سأل عن سبب ذلك أجابوه بأن السلطان يحرص على تجهيز جيشه بأحدث المعدات والأسلحة وهي الآن في الاستعمال .

زار لوكر وزملاؤه سوق مسقط الذي يقول عنه أنه أكثر أماكن المدينة إثارة بالنسبة للزائر الأجنبي . كما يذكر، مثلها مثل أية مدينة آسيوية يعتبر السوق فيها الأكثر ازدحاماً وعملاً حيث يجد الداخل إليه أنواع البضائع المعروضة كالقلائد والأساور والخلاخل والأقراط (للأنف والأذن) والخواتم وأنواع الأحجار الكريمة . كما يتردد على السوق البدو الذين وفدوا إلى المدينة للتسوق وشراء ما يحتاجون إليه .

وقد أعجب لوكر في بطريقة عرض الباعة لبضائعهم بحيث يصعب سرقة أي شيء منها . خصص لوكر صفحات عدة عن نساء مسقط، حيث يقول أنهن محجبات بقطعة قماش من الحرير الأسود أو الأحمر ويرتدين الإزار أو العباءة التي تغطيها من الرأس حتى القدمين . وشاهد لوكر ثلاث فتيات جميلات برفقة ثلاث خادمت حبيشات . وأعجب لوكر بحسن معاملة

نساء مسقط لخادماتهن حيث كن في أحسن حال وكأنهن من نفس العائلة . وكان لوكر يستعمل كلمة الحورية للبنات العمانية والسبب هو أن إحدى الفتيات العمانيات الثلاث كانت تجرب زوجاً من أقراط الأذن لشرائها فلمحها لوكر عندما أმაظت الحجاب عن وجهها قليلاً فتعجب من حسنها الأخاذ وجمالها المفرط . ولما أخبرتها إحدى صديقاتها بأن الأجنبي (لوكر) يراقبها غطت وجهها في الحال . وقد بالغ لوكر عندما قال بأن الموت يكون جزاء الرجل الذي ينقذ امرأة عمانية تسقط في البحر أو يساعد أخرى عثرت في الطريق وسقطت أرضاً .

إن سوق مسقط، على حد وصف لوكر، مليء بأنواع البضائع من منسوجات صوفية إلى حريرية وأخرى قطنية وكتانية مستوردة من جميع أنحاء العالم . وتشاهد في المخزن، كما يقول، شخصاً إيرانياً أو أفغانياً تحيط به منتجات من مختلف أقطار شمال غرب آسيا الثرية . وهو كأبناء جلدته ضخم الجثة بلحية سوداء جالساً على سجادة أصفهانية أو مازندرانية (مدينتان في إيران) وعلى رأسه قبعته الصوفية

المخروطية بعلو حوالي قدمين مصنوعة من صوف الغنم المتنوع الألوان وهو يدخل النارجيلة .

ومخزن آخر يديره تركي بثوب أنيق فضفاض وأكمام عريضة وعلى رأسه الطربوش الأحمر لفت حوله قطعة قماش خضراء أو بيضاء مطرزة . وآخر يبيع القماش جالساً يدخل الغليون الطويل (وتبلغ أطوالها عادة بين ٤ - ٦ أقدام) عارضاً بضاعته وهي عبارة عن أقمشة كتانية وقطنية وصوفية غالية الثمن مع الحريرية والقطنية . ويكلم زبائنه بكل أدب . ومخزن آخر يديره هندي على مذهب البهرة المسلمين بثيابه البيضاء الناصعة كالثلج وعمامته الصغيرة جاء من بلاده محملاً بالبضائع الثمينة والأحجار الكريمة المصاغة وغير المصاغة التي تشتهر بها الهند وجزيرة سيلان . والمخازن مليئة أيضاً بالمخمل والأقمشة المطرزة الجميلة المستوردة من منطقة البنجاب (الآن مقسمة بين الهند وباكستان) إلى جانب الصناديق وقاطعات الورق المصنوعة من خشب الصندل الطيب الرائحة والمزخرفة أو المرصعة بالعاج أو الأبنوس أو الفضة المستوردة من بومباي التي تشتهر

بصنعها وتصديرها . ثم يقول لوكر (أن النساء العربيات في المنطقة (الخليج العربي) مولعات بالبضائع المصنوعة من خشب الصندل . كما لاحظ أن ممارسة التجارة في عمان لم تقتصر على المسلمين بل هناك من أديان أخرى . فواحد يبيع بضاعته التي تفتقر إلى الجودة ودقة الصنع على حافة الصحراء . وباعة آخرون يعرضون بضائعهم في الطريق (وهم عادة من المحتاجين والمتوسطي الحال) وهي تتألف من كل ما يحتاج إليه سكان المدن والبدو والقادمين إلى المدينة .

إلى جانب باعة سروج الخيل أو أغمار الخناجر المطرزة أو الزمزميات وأرشفة الخيل والبغال والحمير المزينة بالأصداق البحرية . ثم الصياقل (مفردها صيقل وهو صانع رصاص البنادق والمسدسات ومصلح الأسلحة النارية) وهم يبيعون مختلف أنواع الأسلحة النارية وأخرى برتغالية قديمة وبنادق أسبانية صغيرة ذات فوهة يزداد عرضها في النهاية شبيهة بالبوق ثم مسدس الفارس الإيراني الجميل المزين بالفضة إلى بنادق صيد بريطانية فاخرة الصنع وسيوف حادة الجانبين وسيوف

تحمل السيف) و (هلا يكون حامل السيف منتصباً على الدوام) و (ليعيش حامل السيف طويلاً) . ويقول لوكر إن زيارة واحدة للسوق مثيرة حقاً للغاية لكل متابع ودارس للأحوال الاجتماعية . غير أن السوق، على حد رأيه، ضيق للغاية بحيث يصعب على أكثر من حصان واحد المرور فيه وهو غاص بالناس من شروق الشمس حتى غروبها حيث تسمع أصوات الضحك والتدافع وتبادل التحايا بضغط الصدور إلى جانب أصوات صانعي الأدوات النحاسية وهم يضربون على النحاس والحدادين يطرقون الحديد بعد استخراجهم من النار بالمعاول ومئات الاسكافية وصياح الباعة لجذب المشترين . ثم مناظر الكلاب السائبة وهي في عراك مع بعضها البعض وشتم الكاريين (سائقي الحمير) لدوابهم وحذاء سائقي الجمال الحزين النغمات .

وباختصار فكل شخص يضيف ما يستطيع إضافته إلى الصخب والضوضاء . وحفظ أصحاب المخازن محلاتهم من حر الشمس بالحصرات . وتملاً جو السوق أنواع الروائح الطيبة المنبعثة من مختلف أنواع العطور والأفاوية والبهارات

ودهن السورد . . الخ. ويلقي الشخص الذي يرغب في المرور بالسوق مهمة صعبة في اجتيازه .

ولاحظ لوكر اختلاف زي التجار والناس فملايس البدو متميزة بالإزارات التي تغطي النصف الأسفل من الجسم والنساء اللواتي يغطين الوجه بعباءاتهن الصفراء وأحذيتهم المراكشية الحمراء المعقوفة الحافة من الأمام .

وقسم آخر من السوق مخصص لطهي الأطعمة وبيعها وصنع الحلويات والقصابين وباعة السمك والفواكه والخضراوات . وأمام كل دكان باعة المرق المتألف من طبخ الخضر واللحم ويقدم في صحن إلى المرتادين بسعر زهيد . وصانعو الحلويات في مسقط مشهورون بحلوياتهم اللذيذة .

وهناك نوع من الحلوى يسمى في جميع أنحاء الشرق الأدنى باسم مسقط وربما هي التي يقول عنها لوكر أنهم يصنعونها من مزج حليب الناقة بالطحين والعسل والزبد . وهي مغذية وطيبة المذاق وصحية وتباع بشكل قطع مساحة كل واحدة بوحدة مربعة . ويذبح قصابو مسقط الماعز والجمال ويندر وجود

لحوم الضأن والبقر وليس هناك أي طلب عليهما ولا وجود للحم الخنزير لتحريم الإسلام له ، وإن إطلاق كلمة خنزير على أي شخص تعتبر إهانة كبيرة . وأعراب شرق الجزيرة العربية مغرمون بلحم الجمال كثيراً ، ويعتبر ذبح جمل صغير السن للضييف تقديراً كبيراً عند عرب الصحراء ودليلاً على احترام منقطع النظير له .

ويظهر أن لوكر قد تذوق لحم الجمل حيث يقول (إن لحم الجمل البالغ من العمر شهرين إلى أربعة أشهر نفيس خاصة عندما يشوى ويفوق لحم العجل)^(٣) .

ويعيش فقراء مسقط على السمك المتوفر بكثرة ورخيص السعر . ثم يقول ، وأعتقد أن قوله دون سند علمي ، إن اقتصار الكثير من مواطني مسقط على أكل السمك وعدم تناولهم الخبز أو الخضراوات أو الفواكه أدى إلى تفشي داء الجذام المنتشر ، بادعائه ، في شرق الجزيرة العربية . ويرفد كلامه بأن نصف سكان مسقط على الأقل يعيشون طيلة أيام السنة على السمك فقط (صيده ، تقطيعه ، تمليحه وتجفيفه) .

وأن كميات هائلة من السمك المجفف بالدخان أو بأشعة الشمس يتم تصديره إلى إيران والهند وجزر الملايو وزنجبار وموريشيوس . ويقدمه أهل البلاد كطعام إلى عمالهم وحماليهم . وأن كميات كبيرة منه يستهلكها ملاحو السفن والبواخر عدا ضباطها ومهندسيها . فغالبية الملاحين هم من شرق الهند أو أفريقية الشرقية الذين يعيشون كلياً تقريباً على السمك المدخن أو الكاري (وهي أكلة هندية كثيرة التوابل تطبخ مع السمك الطازج أو المدخن ومع الدجاج أو البيض والأرز) .

وسوق مسقط ، كما لاحظ لوكر ، قليل الخضراوات لأن المنطقة المحيطة بمسقط ، حسب تعليله ، صخرية أو قاحلة والمناخ حار جداً لا تطيقه الخضراوات ولهذا يلاقي الفلاحون صعوبة كبيرة في زراعتها تزرع فقط في المناطق التي تتوفر بها مياه الإرواء الدائمة . ويزرعون الثوم والبصل والفجل الأبيض والبامية والخيار الصغير الحجم ، وهذه فقط هي الخضراوات التي شاهدها لوكر في سوق مسقط . يتجول لوكر في طرق مسقط وشوارعها وقال أنها ضيقة تفتقر إلى النظافة . وبيوت الأترياء

لا تزيد على طابقين مشيدة من اللبن (الطابوق المجفف بالشمس) بسقوف مستوية ونوافذ محمية بالحديد مما يجعل البيت قليل النور . وتعيش الطبقات الفقيرة في أكواخ صغيرة مشيدة من كتل الطين المجففة بالشمس بسقوف مستوية . ويستحيل النوم داخل البيوت ليلاً خلال الصيف لارتفاع درجة الحرارة حتى منتصف الليل والبيوت مليئة بالحشرات المختلفة والعقارب والجرذان وذات الأربعة والأربعين التي تسرح وتمرح كما تشاء في الطبقات السفلي بعد حلول الظلام . والعجيب أن هذه الحشرات تتجنب السقوف لذا صارت خلواً منها .

أما المساكن خارج حدود المدينة فقد شيدت بصورة أبسط فهي لا تزيد عن كونها أكواخاً صغيرة عبارة عن عيدان قائمة ارتفاعها حوالي السبعة الأقدام مغطاة بسعف النخيل وحصرات القصب . ويعيش أهل البيت على الحصرات والسجاد الرخيص الثمن التي تفرش على الأرض بين الحمير والماعز والكلاب والدجاج والبط . وفي مسقط أربعة أو خمسة جوامع واسعة مربعة الشكل مشيدة بالحجر خالية من

الزخارف والنقوش ولولا وجود القباب والمآذن لصار من الصعب تمييزها عن البيوت .

إن مدينة مسقط وهي عاصمة دولة عمان المستقلة محاطة من ثلاث جهات بالأسوار التي يعوزها التصليح والطرق المؤدية إلى بوابات الأسوار وهي ثلاثة أو أربعة ضيقة جداً ومظلمة .

والبوابات مصنوعة من الخشب وأقفالها من الحديد ولكنها لا تقدم دفاعاً كافياً في حالة أي هجوم عليها . وعدد سكان مسقط بين ٦٠ - ٧٠ ألف نسمة تسعون بالمائة منهم مسلمون والباقيون مكونون من الهنود واليهود والأولون مقيمون بصورة مؤقتة . وتعتبر مسقط من أكثر بقاع العالم حرارة حيث تصل الحرارة بين ٣٤ و ٤٤ بالظل (١١٠ - ١٣٠ فهرنهايت) خلال الصيف الذي يستمر تسعة أشهر . والمطر بعمان وياتجاه الشمال نادر أو معدوم . ويبدأ الشتاء من كانون أول حتى شباط (فبراير) حيث تكون التربة رطبة بفعل الندى الثقيل . أما الخضر فمعدومة حتى الحشائش قليلة إلا إذا زرعها المواطنون . ويحصل السكان على الماء

الخاص بالاستعمال اليومي من الآبار بواسطة الدلاء حيث ينزل دلو مصنوع من الجلد (عادة الماعز) إلى خزانات بدولاب يوضع على فم البئر ويدور به حيوان (عادة حصان أو حمار أو جمل) .

وحيث تكون هناك قطعة أرض (تراب فوق صخور) فهي عادة خصبة تنبت حشائش وتنتج محاصيل وخضراوات إذا ما زرعت بجهد قليل، وفي هذه الحالة يكون الإرواء مهماً .

حدث أثناء وجود لوكر وزملائه في مسقط أن احترقت خلال الليل سفينة أوروبية محملة بالتمور كانت راسية بالميناء وأتت النار عليها ومابها من حمولة . كما حصل خلال زيارة لوكر لمسقط وقبل مغادرته لها بقليل أن انتقل سلطان مسقط إلى رحمة الله بصورة مفاجئة أثناء تواجده في مهمة رسمية خارج العاصمة وأن أحد أخوته أخذ قيادة الجيش من بعده . وقد وصلت أخبار من بومباي تفيد بأن السلطان قد اغتاله في خيمته أخوه الأصغر منه وهو الذي أعلن نفسه قائداً للجيش وكان يحرص على عدم إذاعة خبر وفاة السلطان وعدم وصوله إلى العاصمة . وقد مر الحدث دون تدخل من أية قوة

خارجية . وعند إقلاع باخرتنا من ميناء مسقط لمح الركاب عن بعد ميناء جبرة الذي ترابط به سفن معبأة بجنود السلطان . وتقع جبرة على بعد أربعة أميال شمال غرب مسقط وهي كالأخيرة محاطة بالمرتفعات وتفصلها عن جارتها مسقط سلسلة من الصخور التي تشكل الحدود الغربية لميناء مسقط^(٤) .

مرت الباخرة بعد مسافة عشرة أميال شمال ميناء مسقط بجزيرة صغيرة لا يزيد قطرها عن ثلاثة أميال يسرح بها الماعز البري فقط حيث لا أثر لسكنى بشر فيها . وكان لوكر يستغرب من حياة هذا الماعز دون وجود طعام حيث الخضرة قليلة في الجزيرة .

وفي صبيحة اليوم التالي دخلت الباخرة مضيق هرمز الذي يجعل لوكر عرضه في أضيق نقاطه حوالي عشرين ميلاً والمعروف أن عرض المضيق ٤٦ كم^(٥) .

ولكن لوكر قد يكون على صواب حيث أكد أن المسافة كانت في أضيق نقاط المضيق إضافة إلى أنه كان يقدر العرض دون استخدام مقياس ، ويشكل مضيق هرمز مخرج الخليج العربي إلى المحيط الهندي . وصار إلى يسار الباخرة

فعلياً على مضيق هرمز لأكثر من قرن ولكنهم طردوا من هذه التحصينات سنة ١٦٢٢ من قِبل العثمانيين والجزيرتان تعودان الآن إلى سلطان مسقط ويسكنهما فقط صيادو السمك مع عوائلهم .

ثم مر لوكر بقرية سماها لينجا يسكنها عرب يعيشون بأكواخ بسقوف مستوية مشيرة من الخشب مغطاة بالطين الممزوج بالقش . وقرية لينجا، حسب وصف لوكر، عربية تعود إلى البحرين استأجرتها من حكومتها دولة إيران .

وتقع لينجا في منطقة جميلة وأرض خصبة غنية بموارد الماء العذب على النقيض من ميناء بندر عباس الإيراني . ورغم أن بيوت القرية قد شيدت من الطين أو اللبن إلا أن شوارعها نظيفة للغاية وتقع القرية وسط واحة من النخيل والخضرة الوارفة . وسكانها كلهم عرب يتكلمون اللغة العربية ويتحلون بالشمائل والعادات العربية . وسكانها العرب أكثر تقدماً من الإيرانيين المتواجدين في الموانئ الصغيرة على طول الخليج العربي .

والعرب الذين يسكنون الساحل الفارسي من الخليج العربي فخورون

عند سيرها الرأس وجزيرة مسندم التي كان فيها آنذاك محطة لتلغراف هندية - أوروبية . كما في الجزيرة بيت مشيد من الحجر لسكنى أربعة بريطانيين يعملون في المحطة . ولا تزيد مساحة جزيرة مسندم، برأي لوكر، عن ٢٠٠ ياردة مربعة وهي صخرية قاحلة تجلب إليها كل ضروريات الحياة حتى الماء بواسطة السفن من ميناء بندر عباس . ولا يحسد الموظفون القاطنون فيها حيث هم محرومون ليس فقط من مباحج الحياة بل حتى من ضرورياتها .

مرّ لوكر في صباح اليوم التالي بين جزيرتين هما قشم في الشمال وهرمز التي أعطت اسمها للمضيق الذي يربط الخليج العربي بخليج عمان إلى الجنوب . وخليج عمان أصغر بكثير من الخليج العربي غير أنه مهم تاريخياً حيث كان في السابق قلعة المحتلين البرتغاليين الرئيسية في الخليج العربي . ويمكن رؤية بقايا قلعة واسعة شيدها البرتغاليون على مساحة كبيرة عند النقطة الشرقية من الجزيرة . وأكد لوكر أن جماعته أخبرته بوجود تحصينات صغيرة على الساحلين الشمالي والجنوبي لجزيرة قشم مما يدل على أن البرتغاليين قد سيطروا

بعروبتهم يرتدون الملابس العربية نساءً ورجالاً . ولا يسمح للسكان العرب بالتغلغل لأكثر من ١٠٠ ميل بالمنطقة وهم قانعون بعزلتهم وسعداء جداً بحياتهم . ويقول لوكر أن هذه القرية بالواقع هي جنة عدن الخليج العربي بأسرها .

وينفس الوقت يمتاز عرب هذه القرية بالأناقة والنظافة مقارنة بالفرس القاطنين في السواحل . وحتى نساء هذه القرية العربية أكثر تقدماً حتى من قريناتهن العربيات بالساحل المقابل في كل مجال . ويظهر أن نساء لينجا مولعات بالألوان الأحمر والأصفر ويرتدين ملابس ذات لون واحد منها . وأن جمال هذه الألوان يعطي رونقاً أكثر إلى القرية ويجعلها أشبه بواحة في صحراء . وأن منظر جموع الفتيات والنسوة في ملابسهن الجميلة وعليهن الحلي ويسرن ببسطه واستقامة وهن يحافظن على توازن جرار الماء فوق رؤوسهن بالنسبة لأجسامهن المائلة ويحملن الجرار من حوض الماء الكبير الذي يمتلئ من بئر قريبة منظر يسر العين .

إن عدد الأحواض التي تزود القرية بالماء يربو على الإثني عشر منتشرة بين

أشجار النخيل وعلى بعد حوالي نصف ميل من ساحل البحر، ويمكن مشاهدتها عن بعد حيث فوق كل منها غطاء أشبه بالسقف مشيد باللبن على شكل ضريح . وعمق الآبار حوالي خمسين قدماً وقطرها عشرون والبناء فوق البئر بارتفاع ٢٠ قدماً لحماية الماء من الغبار وحرارة الشمس ولهذا كان الماء صافياً كالبللور وعذباً للغاية .

على الساحل الشرقي من الخليج العربي جنوب لينجا يقع رأس أوفير وإلى الغرب منه تقع جزيرة البحرين . والبحرين دولة مستقلة يحكمها شيخ عربي، ويعود الفضل إلى أمراء البحرين في استتباب الأمن وتقدم البلاد حيث كانت قبل سنة ١٨٥٠ تسودها الفوضى بعيدة عن حكم القانون .

تقع إلى شرق رأس أوفير مصائد اللؤلؤ التي يشتهر بها الخليج العربي حيث يكثر اللؤلؤ في مصائده خلال وقت معين من السنة وفي هذا الموسم يكثر غواصو اللؤلؤ لالتقاط أصداف اللؤلؤ الثمينة والتي توجد أحياناً بكثرة بأعماق الخليج على بعد ٢٠ - ٦٠ قدماً تحت وجه الماء . وتتجمع هذه الأصداف بالطريقة التالية: يبدأ الغواص عمله

عادة وهو عار بكيس مربوط حول بطنه يضع فيه أصداف اللؤلؤ وهو مسلح بسكين حاد في غمد من الجلد يضعها على القسم الأعلى من ذراعه الأيسر ويمسك حجراً ثقيلاً أو قطعة حديدية أو رصاصية تربط بإحكام إلى حبل مرتبطة من النهاية الثانية بالسفينة ويقفز بها الغواص إلى الماء حتى تنزل به إلى الأعماق .

ويسير الغواص في قاع البحر وعيناه مفتوحتان لالتقاط الأصداف التي يحمل منها قدر المستطاع بعد التخلص من الوزن الذي حمّله معه فيصعد عندئذ إلى سطح الماء حالاً حيث ينتشله جماعة إلى السفينة . ويبقى على ظهر السفينة حتى يفرغ أحد ملاحى السفينة ما التقطه الغواص من الأصداف (وعادة نفس الشخص حتى يتجنبوا التزييف) .

وليست كل الأصداف الملتقطة فيها لؤلؤ على الدوام بل تكون أحياناً خالية أو غالباً ما يكون الحيوان ميتاً منذ أسابيع أو أشهر أو حتى سنين . وفي هذه الحالة إما أن تكون الصدفة خالية من اللؤلؤ أو فيها لؤلؤة بلون بني فاتح أو صفراء أو سوداء وكلها عديمة القيمة .

ويصعب بل من المستحيل التمييز بين الأصداف الحية والميتة داخل الماء . ما إن يستريح الغواص ويستنشق الهواء الكافي حتى يبدأ في الغوص ثانية فيقفز إلى الماء . وفي العادة يكون هناك غواصين اثنين في كل سفينة يتناوبان الغوص ، فواحد يلتقط أنفاسه في الخارج والآخر يعمل في أعماق البحر . ويبقى الغواص تحت الماء عادة بين ٢ - ٣ دقائق وبعضهم يبقى خمس دقائق .

وبصورة عامة فهي مهنة شاقة جداً وخطرة وتؤثر على الرئتين بصورة مخيفة .

والغواصون عادة لا يعيشون طويلاً ومن المستحيل مشاهدة غواص طاعن في السن وهم نحفاء جداً لهم مظهر خاص نتيجة إجهادهم أعينهم وهم داخل الماء . ويتطلب الغواص شجاعة لا متناهية وحضور فكر حيث أن مياه البحر مليئة بال مخلوقات الخطرة أمثال القرش SHARK التي تهاجم الغواصين ، والغواص معروف بالحدز الشديد واليقظة المستمرة . والكثير من الغواصين يصارعون هذه المخلوقات الشرسة داخل الماء وعادة ما يخرجون منها منتصرين . ولكن يسمع في كل فصل غوص عن دفع

بعض الغواصين لحياتهم ثمناً لشجاعاتهم ومنازلتهم هذه الكائنات الكاسرة . ولهذا السبب يتناقص عدد الغواصين كل عام حيث تقطع أسماك القرش أجسام بعضهم وتفترسهم . ولهذا السبب يتقاضى الغواصون أجوراً عالية جداً خاصة المحترفين منهم وهم عادة نادر الوجود . ولا يدور في خلد النساء عندما يتزين بالؤلؤ مدى المخاطر التي يلاقيها الصيادون في الحصول عليه^(١) . ثم أقلعت الباخرة في طريقها إلى الكويت، فمرت بجزيرة سماها لوكر فلوشه تابعة لشيخ الكويت . وقد وصلت الباخرة الكويت ورست على بعد ميل ونصف من الساحل لأن ربانها لا يعرف ميناء الكويت جيداً حيث كانت هذه زيارته الأولى له . وكان على ظهر الباخرة تاجر عربي ثري لديه الكثير من البضاعة جلبها من بومباي وهو من أقارب شيخ الكويت وبذلك كان لديه نفوذ وتأثير كبيران ووعد ربان الباخرة بكل مساعدة مع المسؤولين الكويتيين إذا ما أقنع أصحاب البواخر بالوصول إلى الكويت مرة كل شهر (على الأقل) .

أطلقت الباخرة ثلاثة مدافع عند دخولها خليج ميناء الكويت على سبيل

التحية ، أحدثت دويّاً هائلاً وسط الهدوء المخيم . والخليج محاط بالصحراء من الشمال والغرب والجنوب . وقد اجتذبت الإطلاقات الأهالي في مدينة الكويت فخرجوا إلى الساحل ينظرون إلى الباخرة القادمة . ولم تكن هناك أية سفينة عن قرب في الميناء ولكن كانت أعداد كبيرة من السفن عن بعد سحب بعضها إلى الساحل ، وهناك أعداد كبيرة من الرجال يرتدون المآزر يخرجون من بناية ظهر أنها قصر شيخ الكويت . وردت سلطة الميناء تحية الباخرة القادمة بمثلها حيث أطلقوا ثلاث إطلاقات أحدثت الثالثة منها فرقعة غريبة وكان حادثاً قد طرأ حيث أوقعت ارتباكاً بين الناس في الميناء .

ثم وصلت سفينة مجهزة بكابين مغطاة بسجادة خضراء كبيرة ويعمل فيها ١٠ - ١٢ ملاحاً يلبسون المآزر يغني بينهم شخص يظهر من ملامحه أنه أفريقي ذو صوت رخيم ويردد معه الملاحون في نهاية كل مقطع . وكانت السفينة متجهة نحو الباخرة التي تقل لوكر وزملاءه وهي مليئة برجال على وسامة بملابس بدوية ملونة مسلحين بالسيوف والخناجر والبنادق والمسدسات

وهم حرس شيخ الكويت الخاص .
وخرج من الكابين شيخ الكويت حيث
سلم عليه قريبه التاجر الذي أتى في
الباحرة وقبّل كل منهما الآخر في
الأكتاف . وقدم التاجر إلى شيخ الكويت
بكل أدب قبطان السفينة وصار يترجم ما
يقوله لشيخ الكويت إلى اللغة
الهندستانية التي يفهمها قبطان
الباحرة .

كان شيخ الكويت طويل القامة
وسيم الملامح مليئاً بالرجولة ذا لحيّة
فضية تتلألأ على صدره . وقدر لوكر عمر
شيخ الكويت بأكثر من ثمانين سنة يدل
وجهه على ذكاء مفرط وكان في غاية
الأدب والحشمة بكل ما يتفوه به .
ويرتدي بدلة عربية من الحرير وفوقها
عباءة بنفسجية اللون مطرزة بالذهب
ويدها تلمعان بالجواهر (يقصد خواتم
الأصابع) - وحول خصره حزام حريري
أبيض فيه خنجر صغير بقبضة من
الذهب الخالص مرصعة باللؤلؤ والزمرد
والياقوت . ويعتقد لوكر أن الخنجر كان
للزينة ليس إلا . ووراء شيخ الكويت
جمع من أتباعه كلهم بملابس فاخرة
مزيّنة بالجواهر الثمينة . وشاهد لوكر
بين حاشية الشيخ شباناً أفارقة يحمل

أحدهم سيفاً ذا حد واحد وآخر يحمل
سيفاً محدباً فاخر الصنع مرصعاً
بالجواهر . وأفريقياً ثالثاً يحمل نارجيلة
إيرانية الصنع وهي كما يقول لوكر (أفخم
وأجمل نارجيلة رأيتها في حياتي)
وآخرين يحملون غلايين (جمع غليون) .
ويظهر أن شيخ الكويت قد تهيأ
للزيارة التي تحولت إلى ترحيب منه
بقبطان الباحرة .

ودعا القبطان شيخ الكويت إلى رؤية
أقسام الباحرة فزار الكبائن الخاصة
بالمسافرين والمطبخ وغرفة الماكينة التي
أعجب الشيخ بها كثيراً حيث أدارها
العاملون أمامه إلى الأمام ثم للخلف .
ويظهر أن شيخ الكويت لم يصعد إلى
باخرة ويتفقد أجزائها من قبل .

كانت جموع الناس تتقدم للسلام
على شيخ الكويت حيثما يذهب ويحيونه
بالطريقة الخاصة . وكان العرب والهنود
(يقصد بالعرب غير الكويتيين) يحيون
شيخ الكويت بانحناءة تصل وسط
جباههم وأكفهم إلى الخلف . وتناول
شيخ الكويت ، كما يذكر لوكر ، بعض
المربطات مع (المسافرين) في بهو السفينة
التي كانت عبارة عن كوب صغير من
القهوة المركزة الخالصة عملت حسب

الطريقة الشرقية ثم كأساً من شراب الليمون وبعض الحلويات .

ثم دعا شيخ الكويت ربان الباخرة وكل المسافرين الأوروبيين لتناول طعام العشاء معه في القصر . وكان فرح ربان الباخرة بهذه الالتفاتة كبيراً حيث كان يأمل أن تعود عليه بنفع كبير . وأرسل الشيخ سفينة خاصة لأخذ ضيوفه عند غروب شمس اليوم التالي . وأخبر الشيخ ضيوفه بأن إحدى قنابل مدافعه قد انفجرت صدفة وقتلت اثنين من رجاله وجرحت أربعة أو خمسة جروحاً بالغة . وبسبب هذا الحادث المؤلم لم تطلق المدفعية أية إطلاقاً احتراماً للضيوف .

لدى وصول الضيوف الأوروبيين إلى قصر شيخ الكويت كان المكان غاصاً بالمتفرجين من رجال ونساء لمشاهدة قبطان السفينة التي أطلقت قذائفها خلال الماء وتسير دونما شرع أو مجاديف . وكان القبطان القصير القامة في بدلته الجديدة وسيفه المستقيم الصغير يتدلى إلى جنبه قد وضعه للأبهة فقط . وكانت الجموع مشتاقة لرؤية المسافرين الأوروبيين خاصة النساء اللواتي لم يشاهدن (ربما) أوروبياً في حياتهن .

وقد عمل حرس الشيخ طريقاً خاصاً لمرور الضيوف وسط الازدحام الشديد .

وأخيراً وصل المدعوون إلى قصر الشيخ وكان بناية ضخمة مربعة مشيدة بالطابوق وفي داخله ساحة واسعة بوسطها حديقة مليئة بالأشجار والزهور . وأخذ الشيخ ضيوفه إلى غرفة الاستقبال وكانت فسيحة يدخل إليها الهواء النقي من النوافذ والأبواب المؤدية إلى الساحة .

والغرفة مصبوغة باللون الأبيض وزين السقف بالصور الجدارية وفرشت أرضية الغرفة بالسجاد الإيراني الفاخر . وفرشت على طول الجدران الفرش البنفسجية اللون وهي نوع من الأرائك الواطئة العريضة يجلس عليها أهل البيت والزوار وأرجلهم على بعضها . وجلسة هذه الأرائك، حسب تجربة لوكر متعبة (لأنه لم يعهد الجلوس عليها من قبل) بالنسبة للأوروبيين غير أن العرب معتادون عليها . وهناك عادة، يجعلها لوكر إسلامية، هي أن يترك الداخلون إلى الغرفة من النساء والرجال أحذيتهم خارج الباب أو يخلعونها قبل الجلوس على الأرائك في الديوان . ويقول لوكر أن الأوروبيين والعسكريين مستثنين من عادة

خلع الأحذية أو أنهم يستبدلون أحذيتهم بأخرى خفيفة يسميها المراكشية يلبسونها ما داموا داخل الغرفة .

في الوقت الذي يجب على الأوروبي خلع قبعته عند دخوله البيت أو الغرفة فإن المسلمين على العكس عليهم الاحتفاظ بها سواء أكانت قبعة فارسية أو كوفية عربية بالعقال أو طربوشاً تركياً إلا إذا آوى إلى فراشه ليلاً . وعلى هذا الأساس ، على حد قول لوكر ، بقى الضيوف لابسين القبعات عند دخولهم غرفة شيخ الكويت تاركين أحذيتهم عند المدخل بعهددة أربعة أفارقة يحمل كل في يديه نعلاً مراكشياً أصفر جديداً . وجلس الضيوف وأرجلهم على بعضها البعض ، ودخل قبطان الباخرة في حديث مع الشيخ كان يترجمه له التاجر الكويتي . وأحضرت النارجيلات والغلايين التي ملئت بالتبغ الطيب الرائحة أشعل النار فيها خدام أفارقة . وأحضر خادم مبخرة فضية تنبعث منها رائحة طيبة للغاية ووضعها وسط الغرفة . وجلس خادم إلى جانب كل أوروبي يحركون لهم برفق مراوح يدوية كبيرة من ريش النعام لأجل نشر رائحة البخور الطيبة إلى جميع

أرجاء الغرفة . وجاء آخرون يحمل كل منهم طبقاً فضياً صغيراً فيه ستة فناجين ذهبية صغيرة ملئت بالقهوة العربية الطيبة المذاق . ثم قدمت كنؤس الشربت وكان شراباً لذيذاً للغاية يشبه في طعمه شراب الليمون . ثم وزعت الحلوى المسقطية (نسبة إلى مسقط) .

أرسل شيخ الكويت معنا ثمانية من حرسه الخاص ليصحبونا في زيارة معالم مدينة الكويت - والكويت برأي لوكر تشبه تماماً مدينة مسقط وهي مدينة نظيفة للغاية .

وتقع مدينة الكويت على بعد ٤٠ ميلاً من شط العرب وعلى ساحل الخليج العربي . وهي ميناء بحري عدد سكانه من ١٥ - ٢٠ ألف نسمة تقريباً كلهم عرب وهي أقصى ميناء بحري شمال الأحساء أو الحجر وهي البلاد المعروفة باسم العربية الصحراوية . ومناخ الكويت حار بشكل مخيف حيث أنها محاطة من الشمال والجنوب والغرب بصحراء الدهناء . والمناطق بجوار الكويت حارة وقاحلة فيما عدا حديقة شيخ الكويت الصغيرة في قصره . ولا يمكن رؤية أية شجرة أو نبتة داخل أو خارج الكويت على مدى البصر .

وليست هناك تربة بل رمال من الصحراء القريبة، ولاحظ لوكر أن الكثير من البيوت البعيدة عن الشاطئ وقد غاصت إلى سقوفها تقريباً في الرمال بفعل الرياح. وسمع لوكر بان هناك بعض الواحات الصغيرة في الصحراء على بعد ٣٠ ميلاً من المدينة منتشرة هنا وهناك كالجزر في المحيط تتوفر بها الحشائش والشجيرات نتيجة وجود الماء.

ويجلب أهالي الكويت ما يحتاجون إليه من الخضراوات والحشائش والعلف لحيواناتهم من مدينة البصرة التي يجلبون منها أيضاً الأرز والتمور والقهوة والشعير والمحاصيل والتبن. . بواسطة السفن. وأن السفن التي يستخدمونها في نقل موادهم ثقيلة تحمل بين ٥٠ - ٢٥٠ طناً وأن جسم السفينة عريض جداً والعارضة التي تمتد على طول قعر السفينة حادة والدفة فظة غير مألوفة كثيراً وكبيرة بشكل مضحك. ويقف على قممتها مدير الدفة يديرها بواسطة عمود طويل مربوط في نهاية الدفة بصورة أفقية، وتكون في هذه الحالة كقبضة للدفة. وفي السفينة صارية واحدة في وسط السفينة. والغريب أن الصاري

يميل إلى الأمام بزاوية قدرها ٦٠ درجة عكس السفينة الأمريكية حيث يقف الصاري بكل استقامة أو يميل قليلاً إلى الورا. وحتى أعلى الصاري وضع الشراع الكبير الذي عُلّق بواسطة قطعة خشبية ثبتت بها بكرة.

والغريب في هذه السفينة هو أنها عندما تكون محملة وتسير في الماء يكون قوسها على مسافة ٢ - ٦ أقدام فقط فوق وجه الماء بينما يكون الشخص الذي يدير الدفة على مسافة ١٠ - ٢٠ قدماً إلى الأعلى حسب حجم السفينة. وعلى الرغم من الشكل الشاذ لهذه السفن فإن عرب الخليج يستعملونها بصورة حسنة للغاية حتى أنهم يخاطرون بركوبها في أعنف رياح وأصعب مناخ ويصلون في بعض السفن الكبيرة منها إلى الهند ومدغشقر وموريشيوس وسواحل أفريقية الشرقية. إن رجال الكويت على الإطلاق تقريباً إما ملاحون أو تجار، حيث يتاجرون مع البصرة وسواحل الخليج العربي ومع القبائل البدوية في الصحراء باللؤلؤ والبخور والأسلحة النارية وعتادها والأقمشة والسروج

والسجاد ويحصلون على الجلود والأصواف والوبر واللبن والقهوة والموز والتمور . . الخ .

والكثير من أهالي الكويت يربون الغنم والخيول والحمير والماعز والجمال في الواحات وجمالهم مشهورة في جميع أرجاء البلاد العربية بسرعتها الكبيرة وتحملها، كما اشتهرت حميرها ببياضها الناصع . ونساء الكويت مشهورات بجدهن وعملهن المضي ومهارتهن في الكثير من الحرف اليدوية كالحياسة والغزل والنسيج . الخ . كذلك بجمالهن حيث يعتبرن حتى من قبل الأتراك والفرس أجمل نساء منطقة الخليج العربي .

عند عودة لوكر وجماعته من جولتهم الحرة في مدينة الكويت وجدوا شيخ الكويت جالساً بنفس المكان الذي تركوه فيه يعطي أوامره ألى خدمه بخصوص العشاء الذي أعده لضيوفه الأوروبيين .

ومدت المائدة على الأرض حيث وضع الأكل على حصيرة هندية فاخرة

مساحتها عشرة أقدام مربعة فرشت فوق السجادة الإيرانية الفاخرة المفروشة على أرض الغرفة . كما وضعت اثنتي عشرة وسادة ناعمة مغطاة بالقماش الأزرق بها شراشيب عند كل زاوية وضعت بشكل دائرة عند أبعاد متساوية من بعضها البعض خصصت لجلوس الضيوف . ومدت أمام كل وسادة حصيرة صغيرة صفراء اللون دائرية الشكل قطرها حوالي القدمين . وفي وسط كل حصيرة وضعت طاسة فضية على كل جانب منها كأس فضية تحوي الأولى على ماء والثانية على لبن دون معرفة نوع اللبن (من ماعز أو غنم أو بقر أو نياق) حيث لم تكن هناك أي من هذه السائمة في المدينة . وعلم الضيوف بعد ذلك أنه لبن نياق يحتفظ الكويتيون بها في إحدى الواحات القريبة ويجلبون لبنها كل صباح .

كان على المائدة طاقم سكاكين من الفضة جميل جديد ظهر أن التاجر الكويتي قريب شيخ الكويت قد جلبه معه من بومباي . وكان الضيوف الأوروبيون مشتاقين لرؤية شيخ الكويت

وابن أخيه وهم يستعملون هذه الأدوات لأول مرة حيث المعروف أن العرب يتناولون الطعام بأيديهم .

وقدم الطعام بأنواع كثيرة جداً من لحم الماعز المطبوخ إلى حمل مطبوخ وجمل مشوي بكامله وثلاثة أنواع من السمك وبلاو (طعام يتألف من أرز مطبوخ وسمن وبصل مقطع ولوز وكشمش) ودجاج مشوي ومطبوخ . إلى جانب أنواع الخضراوات والفواكه التي جلبت من البصرة . وأمر شيخ الكويت الضيوف أن يأكلوا من كل نوع وبدأ بذلك الشيخ نفسه حتى يظهر للضيوف سلامة الطعام (من أي سم) . وكان الشيخ وأقاربه يتناولون الطعام بأيديهم وهي طريقة الشرق .

وذكر لوكر أنه حتى السلطان العثماني ، باعتقاده ، يستعمل يديه في الأكل . وكان الخبز طيباً جداً من الحنطة المطحونة باليد . وتتألف مطحنة اليد من حجرين موضوعين على بعضهما أفقياً ويدور الحجر العلوي على مرود في الوسط يتحرك بواسطة خشبة توضع

عمودياً في الصخرة . ويتساقط الحب بين الحجرين بواسطة ثقب ويسحق ويصبح طحيناً بالضغط واحتكاك الحجر العلوي بالسفلي . وكان على المائدة الكثير من الزبد والجبن المصنوع من حليب الماعز والغنم .

ويعتقد لوكر أن العرب يفضلون أكل الخضراوات على المستحضرات الحيوانية . وفي نهاية وليمة العشاء بدأ التدخين في النارجيلة والغليون وتقديم القهوة والشربت . وهنا استأذن شيخ الكويت من الضيوف لأداء الوضوء وفريضة الصلاة . وأثناء ذهابه للصلاة صار الضيوف يتحدثون عن الخبرة النادرة التي اكتسبوها . وعند عودة الشيخ دعا ضيوفه لاصطحابه إلى سطح داره والذي هو في العادة للتمشي والنوم ليلاً في الصيف ببلاد العرب . وحقاً ، برأي لوكر ، فالسطح هو أفضل مكان للتمتع بنسيم البحر مساءً والابتعاد عن الحشرات والبعوض والغبار . وتحفظ المفروشات أثناء النهار داخل البيت ثم تفرش ثانية بالسطح قبل الغروب بقليل .

ظلمة دامسة ويسرع الناس إلى بيوتهم
حالما تحل العتمة خوفاً من اللصوص
والحيوانات الضارية أو أن يضلوا الطريق
وهو أمر اعتيادي لطارقي الصحراء
خاصة في الليل .

ويخيم مع الظلمة سكون حيث
تخفت أصوات الناس بالتدريج ويحل
نباح الكلاب السائبة الكثيرة وأصوات
الثعالب عن بعد وحتى الضباع التي
تأتي على رائحة جثث الحيوانات
المتعفنة .

هياً مضيفنا شيخ الكويت فرشاً من
الحرير وغرفة نوم يلعب بها نسيم البحر
الليل فنام الضيوف بكل هدوء إلى حد
أن الشيخ اضطر إلى إيقاظهم صباحاً
خوفاً من أن تضربهم أشعة الشمس
الحارة والتي يعرف الناس هناك أنها
تسبب الصداع الشديد .

ولما حان موعد المغادرة شكرنا شيخ
الكويت على كرمه الذي ليس له حدود .
وقال له قبطان الباخرة التي أقلت
الضيوف الأوروبيين بأنه سوف يعمل كل
ما في وسعه لجعل ميناء الكويت من الآن

ومن سطح القصر أشرف الضيوف
الأوروبيون على الخليج الذي وصفوه
بالجميل الهادئ والذي يحوي ٣٠٢٤
جزيرة صغيرة قاحلة وشاهدوا باخرتهم
راسية في البحر .

ويبدو أن جميع سكان الكويت
يتجمعون في الأسطح للتمتع بالنسيم
الليل الهاب من الخليج . وشاهدوا من
السطح مناظر قلما يرونها بأمكن أخرى
(على حد قول لوكر) ، فهناك رجل
يصلي بكل خشوع وأم تداعب طفلها
وشابان يتحادثان وفتيات عربيات يغنين
أغاني محلية . وعن بعد شاهدوا رجالاً
يسيرون على الأقدام وآخرين على ظهور
الخيول وغيرهم على الجمال ويشكل
منظرهم صورة خلاصة مع لون الأفق
الذهبي في الخلف . وكأمريكي (على
حد قول لوكر عن نفسه) ينام لأول مرة
على سطح بيت عربي فقد شعرت بحالة
غريبة هي أن جميع من في البيت وحتى
سكنة البيوت المجاورة يراقبون حركاتي
وسكناتي .

كان الظلام يحل ، كما في الأقطار
الجنوبية ، حالما تغرب الشمس وهي

فصاعداً محطة توقف اعتيادية لبواخر
الشركة . وأمر القبطان أن تطلق مدفعية
الباخرة ثلاث قذائف كتحية مغادرة .

ومن حسن أدب شيخ الكويت
المنقطع النظير أنه ظل واقفاً على
الساحل محاطاً بشعبه حتى غادرت
الباخرة وغابت عن الأنظار في عرض
البحر .

لاحظنا عدم تعرض لوكر للشاي
الذي نعرف ولع سكان المنطقة الشديد به
والسبب هو عدم دخوله المنطقة بعد .
فالمعروف أن الشاي لم يتم استعماله إلا
حوالي سنة ١٨٧٥ . وكذلك عدم ذكر
السجائر لأن هذه لم تعم في المنطقة إلا
خلال الحرب العالمية الأولى والفترة التي
تلتها^(٧) .

الدكتور سامي سعيد الأحمد

الهوامش

- ١ - A. Locher, With Star and Crescent, (Philadelphia).
- ٢ - إشراف محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة (القاهرة) ١٩٦٥، ص١٧٠٧.
Locher, op. cit. pp. 17 - 22
- ٣ - لوكر، نفسه، ص٣٧.
- ٤ - لوكر، نفسه، ص٢٣ - ٤١.
- ٥ - د. سامي سعيد الأحمد، تاريخ الخليج العربي القديم، (البصرة، ١٩٨٥) ص٢٧.
- ٦ - Locher, ibid, pp. 42 - 53.
- ٧ - نفسه ص٥٤ - ٧٧.